فيلون ومنهج التأويل الرمزي

أ . د. موسى معيرش
جامعة عباس لغرور خنشلة

ملخص :

تسعى هذه الدراسة، إلى التعريف بالفيلسوف السكندري فيلون، وبمنهج التأويل الرمزي، الذى اعتمده، في الجمع بين الفلسفة اليونانية والشريعة اليهودية، محاولا من خلاله التوفيق بينهما، كما نحاول في الوقت نفسه معرفة دوافع هذه المحاولة التوفيقية ومبررات استعانته بهذا المنهج.

Summary

This study seeks to introduce the Alexandrian philosopher Philo ,and approach the symbolic interpretation, which was adopted, in a combination of Greek philosophy and Jewish law, trying to reconcile them through it, and at the same time trying to find out the motives of this attempt compromise and justification for employing this approach .

فيلون فيلسوف يهودي مثير للاهتمام، تأثيره في فلسفة الأديان عظيم، ومع هذا فالمعلومات حوله شحيحة نادرة، والدراسات حول فلسفته معدودة، مما يجعله مجهول لدى الغالبية من المهتمين بالشأن الفلسفي والديني على حد سواء.

مع أن هناك محاولات جادة بذلت لعرض فلسفته، غير أنها ما زالت تحتاج إلى مزيد من الجهد، ولعل من أشهر هذه الدراسات ما قدمه إميل بريهة في هذا الجانب، ومع أننا قمنا في كتابنا التصنيف الفلسفي للقيم بتقديم دراسة نراها جادة عن الرجل، إلا أننا نرى أن هناك العديد من

الجوانب لم نتطرق إليه في هذه الدراسة، وقد تمنينا من قبل العودة إلى استكمال بعض الجوانب التي نتحدث عنها[1]. فيما يتعلق بمولده فتذكر العديد من المصادر والمراجع التي عدنا إليها، أنها كانت حوالي20 ق،م، في حين أن مراجع أخرى ترجعها إلى تاريخ سابق عن هذه الفترة بحوالي عشرة سنوات، أما عن وفاته فتجمع المصادر على أنه كان بعد أن بلغ الرجل قرابة الثلاثة والستين سنة. أما فيما يتعلق بكتاباته فهي كثيرة ومتنوعة، وقد كانت مكتوبة باللغة اليونانية وليست بالعبرية والتي يمكن أن نشير إلى أن ما وصل منها تجاوزت الخمسين كتابا، اعتاد الباحثون على تقسيمها إلى ثلاثة مجموعات النحو التالي:

– الكتابات التأويلية ويدور موضوعها حول تأويل التناخ الكتاب المقدس اليهودي كاملا من كما عرفه يهود الإسكندرية، ونقصد بذلك الترجمة السبعينية. لذا نجده هذه الكتابات تشكل الجزء الأوفر من أعماله بتعداد تسعو ثلاثين كتابا (39 كتاب)، ونتيجة لكوننا لم نقف عن هذه الأعمال، فسنكتفي هنا بماذكره مجدي كيلاني عنها في كتابه المدارس الفلسفية في العصر الهللنستي، عندما قال:" أما المجموعة الأولى فينحصر الاهتمام بها على استعراض الكتاب المقدس... وهذه المجموعة تتألف من ثلاثة أجزاء ضخمة تختلف اختلافا تاما عن بعضها من حيث الشكل والمضمون"[2]، وهذه الأجزاء تنقسم على النحو التالي:

– المجموعة الأولى تتكون من واحد وعشرين كتابا هي عبارة عن تعليقات وتأويلات سبعة عشر إصحاحا من إصحاحات سفر التكوين.

– المجموعة الثانية تتألف من إثنتاعشر كتابا، يطلق عليها إسم القوانين الخاصة، يبرز فيها الطابع الرمزي :" لجأ فيلون إلى أن يستعرض في كتابه القانون بالمعنى الشامل للكلمة لأنه على قناعة تامة بوجود علاقة مباشرة بين قانون موسى عليه السلام وقانون الطبيعة"[3].

أما المجموعة الثالثة التأويلية، فهي عبارة عن أسئلة وأجوبة عن سفري التكوين والخروج، وقد فقدت النص اليوناني منها، غير أن الباحثين وجدوا ترجمة أرمينية لها، وحسب مجدي الكيلاني دائما، فإن فيلون في هذه الكتابات:" تتألف من مجموعة من الأسئلة تتعلق بنصوص التوراة يطرحها فيلون، ثم بعد ذلك يشرع في تقديم الإجابات المناسبة عليها"[4].

في حين أن الكتابات الثانية لفيلون فتتكون من أربعة كتب، عرفت بالكتابات التاريخية الدفاعية، يصف فيها الأحداث التي وقعت بين سنتي 37 و39م. ولا تتوفر لدينا معلومات دقيقة غير التي ذكرناها عن هذه الكتابات.

وأخيرا نجد المجموعة الفلسفية المكونة من خمسة كتب، وقد احتار البعض في نسبتها إلى الرجل ، بسبب الاختلاف الواضح في طريقة عرضها، وفي محتواها المتناقض أحيانا مع غيرها من الأعمال، حتى أننا وجدنا من يحاول أن يرجع ذلك إلى بدايات فيلون الأولى، وبغض النظر عن هذا الجدل، فإن ما تحويه من أراء . إن صحت نسبتها إليه . تكشف عن شخصية جديرة بكل تقدير. بقى لنا أن نشير هنا إلى أن بعض طبعات الكتاب المقدس، ونقصد به طبعة الحياة، تؤكد أن سفر الحكمة الذي يعد من أسفار الأبوكرافيا عند البروتستانت، لم تكن إلا من تأليف فيلون، رغم أنها لا تذكره شخصيا بالاسم[5]. كما نعرف عنه انحداره من عائلة يهودية غنية، استوطنت منذ مدة مدينة الإسكندرية المصرية،التي كانت تعرف آنذاك بعاصمة العالم الثقافية وتضيف كتب تاريخ الفلسفة أن اليهود اختاروه ليكون على رأس وفد منهم، ليسافر إلى مدينة روما عاصمة الإمبراطورية الرومانية، لمقابلة الإمبراطور كاليغولا، ليعرض عليه شكاوي قومه. أما من ناحية أسلوبه في الكتابة فقد امتاز فيلون بأسلوب جميل جعل البعض يرى أنه أشبه بأسلوب أفلاطون الجميل.

بعد هذه النظرة الفاحصة لحياة فيلون وكتاباته، نصل إلى البحث في منهج فيلون أو كتاباته، مما يدفعنا إلى التساؤل عن خصوصية هذا المنهج من جهة، وعن إذا حقق الغاية من استخدامه من جهة ثانية، وأخيرا إذا هذا المنهج منسجم مع فلسفته.مما لدينا يمكننا القول أنه أكبر فيلسوف يهودي في زمانه وفى بعض العصور التي تلته ودون شك حتى تلك التي سبقته.

يهمنا هنا الحديث عن موقفه من علاقة اليهودية كدين سماوي بالفلسفة اليونانية، التي هي في الأصل نتاج العقل الإنساني، خصوصا أن فيلون في هذه المرحلة لا يمثل نفسه فحسب، وإنما يمثل إضافة إلى ذلك قومه ودينه.

كما تعود رغبتنا في معرفة موقف فيلون من مختلف الانتقادات التي وجهها العديد من المثقفين والفلاسفة الهلينيين للثقافة اليهودية بشكل عام والدين اليهودي بشكل خاص، وإلى التوراة بشكل أخص.حيث أصبح العقل الجمعي في الإسكندرية يعتبر اليهودية مجرد ديانة تجمع بين مجموعات من الأساطير المتناقضة والمتعارضة، المليئة بالخرافات والمفاهيم الخاطئة التي لا طائل منها، ولا فائدة ترجئ منها، وأكثر من هذا وذاك فهي تصور عنصري للحياة، تعزل المؤمنين بها وتزرع فيهم أوهام التعصب برفضها لثقافات الشعوب الأخرى، وادعائها تميز أتباعها

عرقيا، حينما تصفهم بأنهم دون سواهم شعب الله المختار، لا لكونهم مميزون في عملهم أو في قدراتهم أو في سلوكياتهم وإنما لمجرد أنهم من نسل إسحاق ابن إبراهيم .

مع ما في هذه الانتقادات من نقاط جديرة بالنظر، إلا أن هذا الموقف الذي تحول إلى قناعات عامة عند خصوم اليهود . وما أكثرهم . أثر تأثير كبيرا حتى في أتباع اليهودية .الذين بدأ البعض منهم يشكك فيها، وإن لم تكن لدينا معلومات دقيقة عن تخلى البعض منهم عن يهوديتهم، فإن ما لدينا يؤكد على أن منهم من صار يخفيها ويشعر بالإحراج من الانتماء إليها.فهل كان فيلون من هؤلاء؟ أم أنه كان له موقف أخر؟ لمعرفة موقفه لابد من البحث فيما وصلنا من أفكاره، حيث يتضح لنا منذ البداية إن الأمر على خلاف ما ذهب إليه هؤلاء، وهذا ما نلاحظه فيما قدمه من قراءة وتصور جديدين لليهودية، يتناسب مع طبيعة الثقافة السائدة والمسيطرة، بحيث تتوافق هذه القراءة مع المتغيرات التي صارت تطبع الحياة الفكرية والاجتماعية آنذاك ولا تخالفها، دون أن تؤدي هذه النظرة الجديدة إلى إلغاء ثوابت اليهودية وأسسها، وإنما تهدف إلى المحافظة عليها والدفاع عنها وتطوريها عن طريق تكييفها مع المستجدات.

لتحقيق هذه الغاية لم يكتف فيلون بمجاراة الفلسفة الهلينية فحسب، وإنما تعدى ذلك إلى قضية أهم. ونقصد هنا العودة إلى المصادر الأساسية التي أخذت منها هذه الفلسفات تصوراتها ومنطلقاتها، مدافعا أحيانا عن ما يعتقد أنه حق ويؤمن به، مهاجما أحيانا أخرى ما يراه معارضا له ومهددا لكيان قومه ودينه. وهذا يجعله يلجأ من جهة أخرى إلى منهج التأويل الرمزي الذي استخدمه من قبل فلاسفة اليونان القدماء وبالخصوص أتباع المدرسة الفلسفية اليونانية الشهيرة المنسوبة إلى فيثاغورس ونقصد بذلك الفيثاغورسية، كما استخدمه أفلاطون بالإضافة إلى الرواقيين أثناء محاولة هؤلاء جميعا التعامل الأساطير والميثولوجيا اليونانية القديمة، التي ظهرت قبل الفلسفة، وكانت تتسم في عمومها بالطابع الخرافي البعيد عن العقل والعقلانية التي جاءت بهما الفلسفة. فعندما رد على الهلينين القائلين بمحدودية اليهودية كدين ونظام حياة ،اعتبر أن هذا الكلام لا يجانبه الصواب فحسب، وإنما ذهب أبعد من ذلك عندما أكد على أن الفلسفة اليونانية التي يفتخر بها هؤلاء، ما هي إلا نتاج العقلية اليهودية الشرقية وليست نتاج العقلية اليونانية الغربية، مدعيا أن أكبر فلاسفة اليونان على الإطلاق وهو أفلاطون ماهو إلا أحد تلامذة النبي العبراني الكبير موسى بن عمران.

من الواضح هن أن فيلون لا يقصد أن أفلاطون جلس إلى موسى مباشرة وتتلمذ على يديه، إذ أن الفارق بين زمني ظهورهما كبير جدا يتجاوز العشرة قرون كما هو متعارف عليه، وإنما يقصد أن تعاليم هذا الأخير كانت منتشرة في الأماكن التي زارها أفلاطون وتلقى فيها العلوم، والمعارف، وهو ما تجلى في فلسفته بشكل عام من أفكار وأراء لا تتشابه فحسب وإنما تتطابق في بعض المسائل. ولا بأس هنا من العودة إلى ما كتبه عبد المنعم الحفني في موسوعته المسماة موسوعة فلاسفة ومتصوفة اليهودية، عندما قال مبينا دور منهج فيلون في التأويل الرمزي :"وقد تصدى فيلون لشرح التوراة باليونانية، يقصد أن يبين للمفكرين بها، أي باليونانية، أن في كتاب اليهود فلسفة أقدم من فلسفتهم، ولذلك يدمج شرحه بالفلسفة، ويقارب بين بعض أقوال الفلاسفة وبين بعض أقوال الأنبياء، ويشرح التوراة شرحا رمزيا على غرار بعض أعمال الفيثاغورسيين، والأفلاطونيين، والرواقيين لقصص والميثولوجيا، فيقول أن التوراة في جملتها تاريخ بني إسرائيل تصيبهم النعم إذا راعوا الشريعة، وتلفهم النقم إذا عصوها وتخلو عنها، وهي تمثل قصة النفس مع الله، تدنوا النفس من الله بقدر ابتعادها عن الشهوة فتصيب رضاه، وتبتعد عنه بقدر انغماسها في الشهوة فيتنزل بها سخطه "[5].

الملاحظ هنا أن فيلون على دراية وافية بأسفار التناخ المختلفة ،فالفكرة القائلة بأن يهوه يسلط عذابه على المؤمنين به من اليهود كلما تخلوا عن عبادته واستبدلوه بآلهة أخرى، ويمكّنهم في الأرض كلما تمسكوا بتعاليمه وطبقوا وصاياه، هي الفكرة المسيطرة على العديد من الأسفار المقدسة خاصة سفر القضاة منها، أما تشبيهه القرب والبعد، بحالة النفس، التي تدنوا من الله وتبتعد ففيه ترديد لما جاء في أسفار أخرى من التوراة كسفر أشعيا مثلا. وعندما قرأ العبارة التوراتية القائلة:"الكاهن الأعظم يخلع رداءه قبل أن يدخل قدس الأقداس" وجد أن خلع الكاهن لثيابه عند دخوله أقدس مكان في الهيكل والمسمى بقدس الأقداس يتنافى مع الذوق السليم والعقل المتزن،إذ ما الغاية من خلع الحاخام الأكبر لليهود لثيابه قبل أن يدخل المكان الأكثر قداسة، والذي لا يسمح لغيره بالدخول إليه ، بل ولا يسمح له شخصيا بالدخول إليه إلا مرة واحدة في السنة، فعمد فيلون إلى تغيّير المعنى بتأويله للنص الذي صار يقصد به النفس الإنسانية التي تتخلص من سيطرة الجسم والمادة عندما ترتقي إلى العالم الأعلى"[6]. فهي دون شك محاولة ذكية من فيلون لتبرير تناقضات التوراة الكثيرة وتفسيرها تفسيرا جديدا، يجعل من هذا الكتاب منافس لكتب اليونان، أولم يفسر هؤلاء ميثولوجاتهم بأن لها ظاهر وباطن، فكذلك التوراة لها ظاهر موجه لعامة المؤمنين بها،

وهناك باطن لا يدركه إلا أولوا العلم من المؤمنين بها دون سواهم. من المؤكد أن إيمان فيلون باليهودية وبكتابها التوراة إيمان لا يضاهيه إلا إيمانه بأن الفلسفة اليونانية لها مكانتها الكبرى في الفكر الإنساني، معتبرا أن بقاء ديانته طوال هذه المدة الطويلة، ومحافظتها على كتابها دلالة قاطعة على عظمتها وصحتها، والتي لم تكن إلا وحيا إلهيا خالصا، والغريب أنه لا يستثنى من هذا التأكيد أي سفر من أسفار التناخ ككل وليس التوراة فحسب . وهو على خلاف سبينوزا الذي جاء من بعده بقرون عديدة وبرهن على أن التوراة الحالية لم يكتبها موسى ولم يعرفها أصلا . يرجع الأسفار الأولى إلى النبي موسى.

نعود لعناية فيلون بالفلسفة اليونانية التي غزت عقول أبناء عصره،ودفعت إلى الاهتمام بدراسة علاقتها بالدين،فكان لابد من الإقرار بدورها ومكانتها دون تخلي عن الدين ،وهو ما دفعه إلى أن يجعل من هذه الفلسفة قادرة على كشف الحقائق، وهو ما نجده في التوراة الحاوية للحقائق والكاشفة للغوامض، وبهذا يمكن لرجل الدين اليهودي أن يجمع بين الفلسفة اليونانية والثقافة اليهودية دون أن يشعر بتناقض أو يجد تعارض بينهما، رغم أن القول الفصل للأقوال الدينية في حالة تعارضها مع النظريات الفلسفية، لكوّن هذه الأخيرة متغيرة ومستحدثة، ونتيجة للعقل الإنساني في حين أن الأخرى ثابتة وقديمة، وقبل هذا وذاك هي نتاج الوحي الإلهي.مع أنها أقل تفصيلا في عرضها لموضوعاتها وطرحها لمسائلها ومناقشتها فيما تنتقده، خلافا للفلسفة التي تهتم بدراسة التفاصيل التي تعمل على إبرازها.

لتحقيق غايته، ذهب فيلون إلى أن كل ما هو موجود في التناخ من : نصوص أخلاقية، عقائد وشرائع ذات معنيين أحدهما حرفي والأخر مجازي يرمز إلى حقائق أخلاقية وفلسفية. ويعلق الفيلسوف والمؤرخ ول ديورنت على التصور الفيلوني بقوله: وكان بهذه الطريقة بوسعه أن يبرهن على صحة أي شيء يريد البرهنة على صحته "[7]. رغم هذا الجهد التوفيقي بين اليهودية والفلسفة اليونانية، وما قدمه من تفسيرات جديدة سمحت برد الاعتبار ولو نسبيا لديانة فيلون، إلا أن ما قام به من جهد لم يجد قبولا عند العديد من الحاخامات اليهود، الذين اعتبروا أن ما قدمه لا يخرج عن كونه تجديفا في حق اليهودية من رجل ينتسب إليها دون أن يكون على دراية كافية بها، فضلا على أن الظروف لم تسمح له بالتبحر فيها.إلا أن هناك من يرى أن ما قام به فيلون أفاد التوراة كثيرا، خصوصا المسيحيين الذين يأخذون بالنسخة السبعينية للتوراة والتي قام سبعون كاهنا يهوديا بترجمتها للغة اليونانية بطلب من بطليموس فلاديوس لأسباب سياسية، ويذهب ول ويرل

ديورنت في كتابه قصة الحضارة إلى أن من نتائج العمل الذي قام به فيلون هو الإصحاح الأول من إنجيل يوحنا [8]، والذي جاء فيه:"فِي الْبَدْءِ كَانَ الْكَلِمَةُ، وَالْكَلِمَةُ كَانَ عِنْدَ اللهِ، وَكَانَ الْكَلِمَةُ اللهَ"[9]. كما يعترف مؤرخو المسيحية القدماء والمعاصرين بتأثير فيلون في المسيحية ودعونا نقرأ ما كتبته موسوعة أباء الكنيسة في جزئها الأول :"وعن تأثير فيلوا في الفكر اللاهوتي يرى هـ. كروزلH.crouzl أن لفيلو أثر كبير في فكر بعض الآباء مثل القديس إكليمنس الإسكندري، والعلامة أوريجانوس، والقديس أمبرزيوس(أمبرسيوس)، والقديس غريغريوسالنيصي، ويبدو أن كلا من المؤرخين من يوسابيوس وجيروم اعتبراه مسيحيا " [10]، وتعترف هذه الموسوعة بفضل فيلون على المسيحية رغم يهوديته بقولها :"ظل فيلو يهوديا في معتقداته الأساسية وهو وإن كان يهوديا إلا انه قريب في تفكيره اللاهوتي والروحي من أن يكون مسيحيا"[11]، وهذا ما يجعلنا نستخلص أن فلسفة فيلون كانت إحدى المصادر الأساسية للمسيحية الحالية. إذ أن كل ما قام به حسب وجهة النظر هذه اعتمدت على الترجمة اليونانية للتوراة ، والتي لم يكن فيلون يحسن غيرها، خاصة إذا علمنا أن عملية التأويل تتطلب العودة إلى اللغة العبرية الأم التي كتبت بها التوراة، وهذا ما يجهله فيلون. إلا أن الدّارس لليهودية بشكل عام وأسفار التوراة بشكل خاص يتساءل: إذا ما كان هؤلاء يعتقدون بالفعل أن التوراة كتبت بالعبرانية، أولم تكتب هي الأخرى بالهيروغليفية أو بالكنعانية في أفضل الأحوال وليس باللغة العبرانية التي لم تكن موجودة أصلا في عهد النبي المؤسس موسى بن عمران. ما نخلص إليه هنا أن فيلون جعل من الفلسفة اليونانية وسيلة لفهم مختلف وجديد للديانة اليهودية، وبدلا من أن يعتبرها . كما فعل غيره معارضة للدين وبديلا عنه، اعتبرها في خدمته، وفهمه فهما جديدا، يتوافق وقواعد العقل، ومبادئ التفكير السليم. وفي هذا الصداد كانت الاستعانة بالمناهج الفلسفية، وطرق تفكير الفلاسفة عملا مهما، وجاعلا منها وطرقا للبناء وليس للهدم"[12].

باختصار فإن فيلون حاول جعل الفلسفة اليونانية في خدمة دينه، منتقدا كل من هاجم اليهودية من الهلينيين، بنفس الدرجة التي انتقد فيها من رفض الفلسفة اليونانية من اليهود التقليديين. إلا أن هذا المنهج قاد فيما بعد إلى تفلسف الدين، وليس إلى تدين الفلسفة كما كان يحلم. وكما رأينا سابقا فإن تأثيرات هذا المنهج لم تقتصر على ديانة فيلون فحسب، وإنما امتد إلى الديانات التي جاء ت بعدها، وبالخصوص إلى المسيحية، التي تكاد تتجسد فيها الكثير من أرائه كاملة.

المراجع:

1. يمكن للقارئ أن يعود إلى كتابنا: تصنيف القيم بين الفلسفة والدين، للاطلاع على هذه الدراسة، التي تعالج إشكالية تصنيف القيم بين الفلسفة والدين عند فيلون.
2. مجدي كيلاني: **المدارس الفلسفية في العصر الهللنستي**، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، سنة 2009م، ص 431.
3. المرجع نفسه:ص 432.
4. المرجع نفسه: ص433.
5. موسى معيرش، **جدل الديني والسياسي، في اليهودية والاسلام**، بين المقدس والمدنس، دار بهاء الدين، قسنطينة، الطبعة الثانية، سنة 2010، ص83.
6. عبد المنعم الحفني: **موسوعة فلاسفة ومتصوفة اليهودية**، مكتبة مدبولي ص164،165.
7. المرجع نفسه : ص165.
8. ول ديورنت: **قصة الحضارة**، ترجمة محمد بدران، دار الجيل للطباعة والنشر، بيروت والمنظمة العربية للتربية والثقافة ، تونس، المجلد11، ص103.
9. المرجع السابق: ص 105.
10. يوحنا: 1.1.
11. عادل فرج عبد المسيح: **موسوعة أباء الكنيسة**، دار الثقافة، القاهرة، الجزء الأول، ص 5.
12. المرجع نفسه: ص 5.
13. موسى معيرش: **قضايا الفلسفة العامة**، دار بهاء الدين، قسنطينة، الجزائر، ص106.